مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني

أحمد سليمان البشايرة *

تاريخ وصول البحث: ١٧/١٢/٢٠٠٤م **تاريخ قبول البحث:** ٥/١٢/٢٠٠٥م

ملخص

يهدف هذا البحث إلى استخراج ما تميز به الحوار القرآني من خصائص وسمات تعلو على ما ألفه البشر في هذا المجال.

وقد سلك الباحث سبيل النظر والتأمل في صور الحوار القرآني المختلفة، وما تحمله من ألوان الصراع الفكري، وسبل التأثير والإقناع والتغيير والتوجيه للفكر البشري، مع ما تضمنته من أساليب الأخذ والرد والمحاورة في كيفية تناول الفكرة وتتبعها، وكيف يسلك القرآن سبيل القذف بالحق على الباطل ليدمغه فإذا هو زاهق . وتتبع ما كتبه العلماء حول منهج القرآن وأساليبه ووسائله في التأثير والإقناع ليجتزئ ويستخلص منها ما يظهر تميز القرآن وعلوه في هذا الشأن.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن جملة من الخصائص الأسلوبية والموضوعية والإلمام بعوامل التأثير وكيفية الدخول والتغلغل في النفس البشرية، التي يتعذر وجودها في غير القرآن من حيث الشمول لعناصر الهداية التي تشغل الفكر البشري مما لا يصل فيه إلى جواب شاف في غير الوحي، ومن حيث إلمامه بمحاورة جميع الملل على اختلاف عقائدها ومناهجها، مع قدرته على إفحام أهل العناد، ومخاطبة جميع العقول على تفاوت مستوياتها الذهنية، والبصيرة التامة في الدخول إلى النفس البشرية من مداخلها التأثيرية، ومطاردة الشبهات من كل أبوابها، مصحوبة بالكشف عما تسنم به الحوار القرآني أعلى درجات الجمال والإمتاع والتصوير، بأوجز عبارة وأوفاها دون إخلال ولا إملال، كما وقف الباحث عند الأسلوب الحواري القرآني المشحون بالتحدي، في أبين طريق سلكها لإقامة الحجة على حجيته، وأثبت فيها عجز خصومه، وانقطاعهم عن معارضته.

Abstract

This study aims at bringing out to the open the properties which have distinguished Quranic conversation from what people have ever experienced.

The researcher has followed the method of contemplation in studying various Quranic conversations along with the intellectual conflict they encapsulate; ways of influencing, convincing, altering and directing of mankind thought including styles of give- and- take and dispute of treating and following up ideas; and how the Holy Quran follows the way of stamping wrong by right until it is vanished. In addition, the researcher traces what other scholars have written about the style and methods of the Holy Quran in influencing to come up with the fact that the Holy Quran is high and distinguished in this field.

The study has revealed many stylistic and objective properties and cognized the affecting factors and how to enter and deeply enbed in the human syche. Such styles never exist at any book but the Holy Quran which; includes guiding causes which occupy mankind thought which has no answer except by inspiration, knows how to converse all various creeds, realized how to effectively enter the human syche, chases all obscurities.

المقدمة:

إن الحديث عن الإعجاز القرآني من جهة أسلوبه

---

* أستاذ مساعد، قسم الفقه وأصوله، كلية الشريعة والقانون، جامعة إربد الأهلية.

الحواري بما فيه من قوة في الأدلة وقدرة على الإقناع والإلزام، يضفي على وجوه الإعجاز التي طرقها العلماء لونا جديدا، يتداخل معها وينتشر بين ثناياها كانتشار الماء في العود الأخضر.

ولقد تحدث العلماء عن وجوه الإعجاز المتعددة وتوسعوا فيها ، خاصة في جوانب البلاغة والبيان والنظم(١)، والإخبار عن المغيبات (٢)، أو أميّة النبي ε مع غزارة ما صدر عنه من علوم ومعارف (٣)، أو ما نطق به من أخبار الأمم الماضية، أو اشتمل عليه من دقائق العلوم التي تتكشف مع الزمن (وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي) ولكنهم لم يتوسعوا في الكشف عما يحويه الحوار في القرآن من مظاهر الإعجاز ، في حججه وبراهينه وقوة إقناعه وتأثيره مع حضوره في أذهانهم وتردده على ألسنتهم على قلة في ذلك دون توسع أو تقصي (٤)، و ممن ذكر هذا الجانب الإمام الخطابي(٥) – رحمه الله تعالى – حيث يقول: (قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ε من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانا)(٦).

ولا أقول بأن هذا اللون من الإعجاز (أعني الأثر النفسي)، ينفرد به أسلوب القرآن الحواري أو منهجه الجدلي والإقناعي بل هو أثر مشترك لعوامل متعددة منها الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والقصص والأمثال، على ما بينها من التداخل والتمازج . وأكثرها أثرا ما يحاور العقل ويخاطب اللب ويرد على النفس هواجسها وخواطرها ووساوسها وأفكارها وهو يوقظها من سباتها ويقيل عثراتها، ويقودها إلى الحق الواضح الذي لا شبهة فيه ولا غموض، فيطهر النفس من أدرانها، ويخلصها من شوائبها، ويضعها أمام الحقيقة الناصعة صافية نقية.

ولعلك تجد هذا في حديث النفس وهي تقرأ القرآن أو تستمع لتلاوته وهي حاضرة القلب متدبرة لمعانيه كيف ينازعها الأفكار ويطارد في ثناياها الأوهام . ولك في هذا نموذج يوضح ما أقول من قصة إسلام عمر τ إذ يقول: (خرجت أتعرض رسول الله ε قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: والله هذا شاعر كما قالت قريش، فقرأ: إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . قلت: كاهن. قال: ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون .. إلى آخر السورة . قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع)(٧).

ولقد تميز القرآن عن سائر معجزات الأنبياء بقوة إقناعه وتأثيره ومخاطبته العقول على امتداد الزمان، وعدم الوقوف في إلزامه على المعاصرين لنزوله . قال ε: {ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة}(٨).

قال ابن حجر (٩) في معنى هذا الحديث : "إن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصى موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعها لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً."(١٠).

وقال السيوطي(١١): "والمعجزة إما حسية وإما عقلية وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم(١٢)، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم(١٣)، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر"(١٤).

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية هذا الموضوع من حيث إنه يعد إسهاما في الكشف عن وجوه الإعجاز الذي يعد من الدراسات القرآنية الدالة على صدق النبوة وصحة الوحي، كما أنها تعالج جانبا من أ هم القضايا الإنسانية، وهو الحوار الذي لا غنى للحياة البشرية عنه، في تقريب وجهات النظر، وتضييق الهوة بين الأطراف المختلفة، وفتح الأبواب لإيجاد البدائل الإيجابية التي تحد من الصراعات البشرية.

كما يكشف عن دور القرآن وعظمته في هداية البشرية إلى أقوم السبل الحوارية، وأرفعها مقاما، وأنجحها أثرا، وأبعدها غورا من كل ما عرفت البشرية في هذا الجانب الهام من جوانب الاتصال والتماس وتبادل المعارف، وما يترتب عليها من اتخاذ المواقف وبناء المصالح.

كما تأتي أهميته كذلك من حيث أن القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية يسلك أنجح وسائل الإقناع وسبل تفاعل الإنسان مع العقائد والأفكار، فتأتي هذه الدراسة لتكشف عن أسرار تفوق القرآن في هذا الميدان.

الجهود السابقة:

لقد أفاض العلماء في الحديث عن إعجاز القرآن في جوانب متعددة، ولكنني لم أجد من أفرد هذا الموضوع بدراسة متخصصة، و كل ما وجد إنما هي جزئيات متفرقة، وإشارات وتلميحات متناثرة وغير مركزة على ما يحويه الموضوع من غزارة وأهمية، ولا أعني من تحدث عن الحوار عموما، وإنما أخص من بحث في إعجاز الحوار القرآني على وجه التحديد.

سبب اختيار الموضوع:

لأهمية هذا الموضوع كما أسلفت،ولخلوه من الدراسة المتخصصة في هذا الوجه بالذات من وجوه الإعجاز، رأيت أن أخوض غمار هذا الموضوع وأدلي فيه بمحاولة تفتح بابا جديدا من الكشف عن وجوه إعجاز القرآن العظيم الذي لا تفنى جدته ولا تنقضي عجائبه

منهج الباحث:

لما كان هذا الموضوع بكرا في بابه، لم يفرده أحد بالبحث من قبل، كان لزاما على الباحث أن يشق طريقا غير ممهد، يبذل فيه جهدا متميزا في البحث والتحري والتقصي لما حواه القرآن من ألوان الحوار ومجالاته، متأملا في خصائصها الأسلوبية، ومداخلها، وغاياتها، ووسائلها، وموضوعاتها، وآثارها، للكشف عما تميزت به عما ألفه الناس من ألوان الحوار على تفاوت مستوياتها بين الملاينة والشدة، وأثرها في واقع البشر بما تحدثه من تفاعل وتغيير ويقين عند من أدركها وتعايش معها، ومدى شمولها وإحاطتها بقضايا الإنسان وما ساد في حياته من أنماط التفكير والمعتقدات. وقد يلزم في بعض المواطن الاستشهاد بآيات قرآنية، الغرض منها الإشارة إلى موضوعها لا إلى الدخول في تفسيرها وتفصيل مقاصدها ومعانيها فأكتفي بذلك، إذ به يتم أداء المقصود.والتزمت تخريج الآيات والأحاديث، وعزو النصوص المنقولة إلى مصادرها، وترجمة الأعلام بإيجاز، وإن كان مشهورا أشرت إلى مكان ترجمته من كتاب الأعلام للزركلي تيسيرا على الباحث.

هيكل البحث :

جاء هذا البحث مشتملا على مقدمة وعرض وخاتمة.

أما المقدمة فقد تناولت تمهيدا يكشف عن وجود هذا اللون من الإعجاز، وأهميته والجهود السابقة، وسبب اختياره، ومنهج الباحث، وهيكل البحث.

وأما العرض فقد تناول جوهر الموضوع المشتمل على مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني التي توصل إليها الباحث والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية

١- الحوار القرآني المعجز الطريق الأمثل لإثبات إعجاز القرآن.
٢- شمول الحوار القرآني ببرهانه المحكم لجوانب الهداية التي تلزم البشر للخروج من الضلال إلى الهدى
٣- شمول المحاورة والمحاجة لأصناف البشر على اختلاف عقائدهم وأفكارهم وتنوع مشاربهم.
٤- عموم الهداية والبيان للعامة والخاصة، بحيث يجد كل منهم بغيته بالعبارة نفسها.
٥- الجمع بين قوة الإقناع وبراعة الجمال والإمتاع.
٦- براعة التصوير الفني الذي يظهر جليا في مجال الحوار حيث تظهر الألفاظ مشاهد الحوار بأشخاصها وانفعالاتها وحركاتها كأنها مشاهدة محسوسة.
٧- القدرة الباهرة على مخاطبة النفس من مداخلها التأثيرية كافة والدخول إليها من جهة غرائزها ومطالبها الضرورية العاجلة والآجلة.
٨- التفنن في تصريف أساليب الخطاب بما يتناسب مع المقام
٩- القدرة على استخراج خفايا النفوس وما تكنه في بواطنها مما تحاول إخفاءه ركوبا لمتن المكابرة بما يسكت البليغ اللسن، والألد الخصم.
١٠- عرض الآراء المختلفة التي تمثل أطراف الحوار بأجلى صورة وأوضح بيان دون زيادة أو نقصان
١١- تتبع الشبهات من أقاصي النفس والإحاطة بموضوع الحوار من جوانبه كافة.
١٢- اشتمال الأدلة القرآنية على البراهين والأقيسة ذات المقدمات والنتائج القائمة على ميزان منضبط
١٣- الإيجاز في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

وأما الخاتمة فقد تضمنت النتائج والتوصيات.

مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني :

ويمكننا أن نجمل أهم مظاهر الإعجاز في ميدان الحوار(١٥) والجدل(١٦) في الأمور التالية:

أولا: الحوار القرآني المعجز الطريق الأمثل لإثبات إعجاز القرآن.

إذا أردنا أن نتلمس مظاهر الإعجاز القرآني في براهينه وقوة أدلته وبراعة حواره فلا بد أن نقف أولا على ما ثبت به الإعجاز من قوة البرهان وبراعة الاستدلال في ترتيب خطواتها وشدة ترابطها وقوة إلزامها، كيف لا وهو كتاب قد أحكمت آياته إحكاما، لا يبقي ثغرة لزائغ أو منكر أو محتال وفصلت لتكون واضحة البيان، قال تعالى: [الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ][هود: ١]. وذلك أن القرآن تحدى المكذبين المنكرين لنسبة القرآن إلى الله تعالى أن يأتوا بمثله وقد ادعوا أن النبي ε تقوله من عند نفسه فقال : [أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ][الطور: ٣٣-٣٤] أي إن كان تقوله وهو بشر وكان بمقدور البشر أن ياتوا بمثله فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، ثم خفف عليهم فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ذلك حين ادعوا أنه افتراه من عند نفسه مطالبا إياهم أن يفتروا مثله إن كان هذا مما يفترى: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ][هود: ١٣-١٤]، ثم خفف فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله فقال:[أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ][يونس: ٣٨]، ثم وسع دائرة التحدي لتشمل غير

العرب وفي مجالات لا حصر لها فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله(١٧).

وكان هذا التحدي يتسم بالإثارة والاستفزاز والتهكم اللاذع، ليستنهض الهمم إن كان لها طاقة، ويستثير العزائم إن كان بها عزم . والعربي بطبعه يزعجه ذلك ويدفعه إلى أن يركب الصعب والذلول ليثبت عدم قصوره إن كان له على الأمر حول أو طول، قال الله تعالى:[وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكافرين][البقرة:٢٣-٢٤].

وقال: [قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا][الإسراء: ٨٨].

فهذه الآيات بمجموعها تشكل صورة متكاملة من صور حوار القرآن الكريم مع خصومه مشحونة بالتحدي، فهم يقولون : تقوّله، افتراه، يعلمه بشر، لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهو يقول: فأتوا بمثله، لا بل بعشر سور مثله، لا بل بسورة مثله، أو من مثله، ولن تستطيعوا، ولن تفعلوا، ولو اجتمعتم مع الجن وكان بعضكم لبعض ظهيرا . وجعل عجزهم عن ذلك برهانا على أنه من عند الله.

وإذا انضاف إلى هذا التحدي المستفز بأسلوبه المثير وجود دواعي المعارضة والحرص الشديد عليها لإبطال ما صدع به محمد ε في وجوههم، ذلكم الغرض الذي حشدوا له الكثير من جهودهم وطاقاتهم وأموالهم، وأفنوا الكثير من أعمارهم وشبابهم؛ فأعدوا الجيوش وخاضوا الحروب فقتل منهم من قتل وأصيب من أصيب وفقدوا الأعزاء من الأبناء والآباء والأحباب، وكان يمكنهم أن يستعيضوا عن ذلك بعقد مؤتمر جامع أو سوق كسوق عكاظ فيأتوا بسورة من مثله، إن كان لهم إلى ذلك سبيل، ولكنهم لم يزيدوا على أن قالوا :[قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ][الأنفال:٣١]، فليشاؤا إذا ! فإلى متى؟ وقد أنفقوا أموالهم وفنيت أعمارهم، وتوالت عليهم الهزائم.

وإذا علمت أنهم لم يمنعهم من ذلك مانع، ولا حال بينهم وبينه حائل، فاللغة لغتهم، بحروفها ومفرداتها وأساليبها، والفصاحة هم أربابها وفرسانها، مع إنظارهم المدة الكافية، وإمهالهم المهلة الوافرة، التي لم يحصروا فيها بزمن، إلا ما استعجلوا به على أنفسهم من سلوك غير هذا السبيل.

فإذا توفرت هذه العناصر الثلاث:

- وجود التحدي.
- ووجود الدوافع.
- وانتفاء الموانع.

ولم تقع المعارضة- ولو وقعت لتنافسوا في نقلها وإظهارها وإشاعتها- دل ذلك على العجز الأكيد . وبقي القرآن وحده بطريق البرهان القاطع، والحجة الدامغة يعلن على نفسه أنه من عند الله، وأن أحدا من البشر لا يستطيع الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو حشدوا إلى صفهم من أرادوا، ليحكم عليهم طوق البرهان، فلا يجدوا سبيلا إلا الإيمان بأن محمدا ε هو رسول الله حقا . ما افتراه ولا تقوله ولا علمه إياه بشر، وما هو إلا وحي يوحى(١٨).

فانظر إلى هذا الحوار القرآني الذي يحاور به فصحاء العرب ابتداء، وحكماء البشرية، ومن ظاهرهم من الإنس والجن على امتداد الزمان، يحمل روح التحدي المستمر، فلا يزال هذا التحدي ماثلا والحجة باقية والبرهان قائما والعجز ثابتا مدى الدهر، ما لم يظهر له معارض . ولن يكون، ليعزز التحدي بالقطع بنفي الوقوع [فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ...]

فانظر كيف برهن على الإعجاز بالبرهان الحواري المعجز.

ثانيا: شمول الحوار القرآني ببرهانه المحكم لجوانب الهداية التي تلزم البشر للخروج من الضلال إلى الهدى

ذلك أن القرآن الكريم يحاور العقل البشري ، و يذكر صورا من المحاورات التي تكشف عن أهم القضايا التي تشغل بال الإنسان عن أهم الغوامض التي لاتصل إليها حواسّه ووسائل بحثه (١٩)، وهي؛ معرفة الله وحقيقة الكون وأصل الإنسان كيف وجد وما هي وظيفته في الحياة وما مصيره.

انظر إليه وهو يتحدث عن خالقية الله تعالى للكون [هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ] [لقمان:١١]، إنه يشير إلى خلق الله، ثم يحاور طرفا آخر -أعني الجاحدين- متحديا إياهم أن يروه شيئا خلقه غير الله، وفي مجال مكمل يحاور حول ربوبية الله تعالى وإنكار اتخاذ أرباب من دونه، ب "قل" وأدوات الاستفهام المتتابعة حيث يقول : [قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ][الرعد:١٦].

وانظر إليه وهو يثير التساؤل في ذهن الإنسان عما قبل وجوده، وكيف وجد؟ وما وظيفته؟ وإلى أين المصير؟ في قوله تعالى : [هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا* إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا* إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا . إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا][الإنسان:١-٥]، سالكا طريق الاستفهام الذي يعد من أهم مداخل الحوار.

وفي حوار الله تعالى مع الملائكة يكشف عن أصل الإنسان، ووظيفته ومؤهلاته وخصائصه إذ يقول: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] [البقرة:٣٠-٣١].

كما يكشف للإنسان عن علاقته بخالقه إذ يقول : [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ][الذاريات:٥٦-٥٨].

وعن مصير الإنسان المتمثل بالبعث والنشور والعودة إلى الحياة بعد الموت يحاور بطريقة إقناعية مدعمة بالحجج والبراهين إذ يقول : [أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] [يس:٧٧-٨٣].

ثالثا: مخاطبته لجميع الملل على اختلاف عقائدهم وأفكارهم ومشاربهم سواء منهم من يعبد ظواهر الطبيعة من حجر أو شجر أو شمس وقمر ونجوم أو بشر ، أو قواها كالنور والظلام والرياح ، وهو بهذا يطارد صور الباطل التي تغزو عقول البشر، كاشفا عن زيفها داعيا إلى الحق، مبرهنا على صحته. وقد أجملت سورة الأنعام جميع هذه المعبودات مدللة على مخلوقيتها وعدم صلاحيتها أن تكون آلهة تعبد بقوله تعالى: [الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ][الأنعام: ١]. حيث تضمنت إفراد الله تعالى بالحمد كله (٢٠)، وأخبرت بأن السماوات والأرض وما فيهن مخلوقات لله بأجرامهن، وكذلك كل ما يجري فيهن من أعراض، وبهذا تكون قد اشتملت على إبطال عقائد المشركين، والصابئة والمجوس والنصارى الذين ادّعوا آلهة غير الله، فالمشركون زعموا آلهة من الأرض، والصابئة زعموا آلهة من الكواكب

السماوية، والنصارى زعموا آلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم(٢١).

فالله إذ يخبرهم أنه خالق السماوات والأرض، أي بما فيهن، وخالق الظلمات والنور، يبرهن على ضلال من عبد هذه المخلوقات . ولهذا انتهت الآية الكريمة بقوله تعالى: [ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ][الأنعام: ١] أي؛ يسوون به غيره من هذه المخلوقات فيتوجهون إليها بالعبادة(٢٢). ومن خصائص هذه السورة أنها اشتملت على إبطال مذاهب المبطلين والملحدين(٢٣).

ومن نماذج ذلك حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في إبطال عبادة الكواكب في قوله تعالى : [فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ .إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ][الأنعام: ٧٦-٧٨].

ونجد القرآن يحاور العقل حول حقيقة السماوات والأرض والنبات والبحار والرياح... وأنها آيات الله تعالى دالة على قدرته مسخرات للإنسان فلا يصح اتخاذ شيء منها آلهة من دون الله كما في قوله تعالى : [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ][البقرة: ١٦٤].

كما يحاور من غلب عليهم مذهب ديني أو مشرب فكري شغل تفكيرهم وسد عليهم مسام الإدراك، وقد يأخذهم التعصب أحيانا لمذهبهم ، والتعصب يعمي ويصم، ويجعل النفس لا تسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة. ويدخل في هذا الصنف أ هل الكتاب الذين جاء الأمر بجدالهم بالتي هي أحسن، قال تعالى :[وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ][العنكبوت: ٤٦]، وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس عليهم الحق بالباطل، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون، إذ يلزمهم بما عندهم ويفحمهم بما بين أيديهم، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لإلزامهم بما يرفضون ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:[وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّ لنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا][الأنعام: ٩١]. كما يعرض عليهم الحوار على أسس متفق عليها مسلمة عند جميع العقلاء مقررة في جميع الأديان فيقول: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ][آل عمران: ٦٤].

ويسلك معهم أسلوب ضرب الأمثال بما يلزم العقل بإلحاق المتشابهات بالمتشابهات ويغلق عليهم أبواب التمييز بلا مخصص إذ يقول: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ][آل عمران: ٥٩]. كما يسلك معهم سبلا تكشف عن مغالطاتهم وخرافاتهم وافتراءاتهم، وما يخفون من حقائق تقوم بها الحجة عليهم (٢٤)، كشف العليم ببواطنهم، الخبير بنفوسهم، المحيط بما عندهم. فمن ذلك قوله تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيد عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ][آل عمران: ٩٨-٩٩].

ومن أبرز الأمور التي يعالجها الحوار القرآني، إقامة الحجة على مدعي الألوهية من البشر، ليبطل دعواهم ويكشف زيفهم، يظهر ذلك من خلال حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود في قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]البقرة: ٢٥٨]. ومن حوار موسى عليه السلام مع فرعون في قوله تعالى :[قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى* قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى* قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى* قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى]طه: ٤٩-٥٣]. وهو بهذا يعالج قضية من أخطر قضايا الإنسان التي تقف حائلا أمام البناء الحضاري والاستقرار النفسي بالخروج عن الموقع الطبيعي للإنسان بين الإفراط والتفريط، من حيث أنه يطامن من كبرياء الطواغيت والمتكبرين من جهة، و يحرر أصحاب النفوس الذليلة الخانعة التي ألفت الخضوع والانقياد المهين إن أرادت التحرر من جهة أخرى(٢٥).

كما نجده يحاور مشركي العرب كاشفا عن جهلهم مبددا لأوهامهم وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، إلى قوله تعالى :[قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ][الأنعام : ١٤٠](٢٦).

ويبرز من خلال ذلك الحوار مع من يعتدي على حق الله تعالى في الحاكمية، فينصب نفسه مشرعا يحلل ويحرم من دون الله، كما في قوله تعالى: [ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

وانظر إليه كيف يحاور منكري البعث في مواضع عدة من الكتاب العزيز(٢٧) منها قوله تعالى:[بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ] [المؤمنون: ٨٠-٨٩].

ومنها قوله تعالى: [وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ م بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ]يس: ٧٨-٨١].

ولما كانت نزعة الإلحاد ظاهرة قديمة تتجدد كلما ظهر في البشرية من طمست عقولهم وأصبحوا لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة، فينكرون وجود الله، وعالم الغيب، نجد القرآن بالمرصاد للرد عليهم بما يلجمهم ويقطع دابر الإلحاد(٢٨) بقوله تعالى :[أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ][الطور : ٣٥-٣٦] وبقوله تعالى : [أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ* وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى

إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ][الجاثية ٢٣-٢٨].

كما يلزمهم بالاعتراف بما لا تقع عليه الحواس من خلال حقيقة لا منازعة فيها تثبت محدودية علم الإنسان لتثبت له قاعدة لا قبل له بردها تقول : عدم العلم بالشيء لا يثبت عدم وجوده ، "أو عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود "⁽٢٩⁾ وذلك من خلال قوله تعالى : [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً][الإسراء: ٨٥].

رابعا: عموم الهداية والبيان للعامة والخاصة، حيث تخاطب جميع مستويات البشر على تفاوت درجات الذكاء، واختلاف القدرات العقلية، بحيث يجد كل منهم بغيته بنفس العبارة، في آن واحد ؛ وذلك لما يحويه من الجمع بين العمق والمتانة مع السهولة واليسر يقول الدكتور دراز ⁽٣٠⁾ تحت عنوان خطاب العامة وخطاب الخاصة:" وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت به العامة باللمحة والإشارة التي يخاطب الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها في بيانك _ أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب بة الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصّة على السواء ميسر لكل من أراد: [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ][القمر: ١٧]"⁽٣١⁾.

وحول سهولة البراهين القرآنية ويسرها يقول السيوطي بعد أن وصف البراهين القرآنية بالشمول (لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين ⁽٣٢⁾ لأمرين؛

أحدهما بسبب ما قاله: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ][إبراهيم: ٤]⁽٣٣⁾. ورسول الله ρ إنما بعث في أمة أمية، وقد امتن الله عليهم بهذا العلم الغزير الذي وعوه وانتفعوا به على أميتهم قال تعالى: [لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ][آل عمران: ١٦٤].

ثم ذكر الأمر الثاني فقال : "إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا، فأخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء"⁽٣٤⁾.

وفي بيان الوفاء بالغرض مع الوضوح واليسر يسوق ابن الوزير ⁽٣٥⁾ جملة من الدلائل القرآنية العقلية على معرفة الخالق ووحدانيته، وعلى صدق الرسول ε، وعلى اليوم الآخر ... ثم يقول: "وأمثال ذلك في القرآن كثيرة، فهذه أدلة قاطعة جلية تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، أول النظر، ويشترك كافة الخلق في دركها، فأدلة القرآن والسنة مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، ولهذا كانت أدلة القرآن سائغة جلية، ألا ترى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ][الروم: ٢٧] وإن التدبير لا ينتظم بدار واحدة بمدبرين، فكيف ينتظم في جميع العالم⁽٣٦⁾، وأن من خلق علم، ثم خلق كما قال : [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ][الملك: ١٤]، فهذه أدلة تجري مجرى الماء

الذي جعل الله منه كل شيءحي)"(٣٧). ومع هذه السهولة واليسر والقرب من أفهام العامة والخاصة إلا أنها تحمل في طيّاتها العمق والمتانة وسلامة الموازين التي يعجز عنها الأذكياء وينقطع دونها جهابذة المفكرين والفلاسفة

وحول تفاوت ا لعقول، ومخاطبة القرآن لها جميعا ليأخذ كل منهم بقدر طاقته، يقول ابن رشد (٣٨): "فمنهم من يصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية"(٣٩) ثم يبين أن الشريعة لما دعت الناس من هذه الطرق الثلاث، عم التصديق بها كل إنسان، إلا من جحدها عنادا بلسانه، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها إلى الله تعالى، لإغفاله ذلك من نفسه(٤٠).

ولتفاوت مراتب الناس نوع الله مراتب الخطاب وأمر به فقال :[ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ][النحل: ١٢٥]. "والحكمة هي؛ المقالة المحكمة الصحيحة هي الحجة الموضحة للحق المزيلة للشبهة، والموعظة الحسنة هي؛ الخطابات المقنعة والعبر النافعة التي لا يخفى على المخاطب أنك تناصحه بها "(٤١). "وأما المجادلة فهي المفاوضة والمناظرة على سبيل المنازعة والمغالبة من جدلت الحبل؛ أي أحكمت فتله، فكأن كل واحد من المتجادلين يفتل صاحبه عن رأيه"(٤٢).

وإذا وقفنا على أحوال مراتب البشر أمكننا أن ندرك بدقة أكثر سر تنويع الخطاب ودورانه على هذه المراتب، فمن الناس من غلب عليه حب البحث والنظر ولا يرضيه إلا الدراسات العقلية، والنزعات الفلسفية وكان لهم من أوقاتهم ما جعلوه في دراسات واسعة النطاق والتبحر في علوم سيطرت عليهم، فهؤلاء إنما يخاطبون بالحكمة وهي الأدلة القوية المحكمة التي تحمل عمق الفكرة ودقتها، فإذا ما أنعموا النظر فيها مع ذكائهم واطلاعهم وجدوها محكمة مقنعة. أما عامة الناس فتفكيرهم أقرب إلي الفطرة بسلامتها وسذاجتها فلا يخاطبون بما يخاطب به الفلاسفة والحكماء ولا يطالبون بالفهم الذي يطالب به أولئك، وإنما يخاطبون ويطالبون بما يتناسب مع مقامهم ويليق بحالهم، والموعظة الحسنة هي التي يلتقي فيها الحق مع الوجدان، ويجعل الحقائق اليقينية غالبة بما يجعل الأهواء تابعة لها، والميول خاضعة لمنهاجها، وليست الموعظة الحسنة هي الأقاويل الخطابية بالمعنى الذي يذهب إليه المنطقيون، بأنها تلك الأقاويل التي توصل إلي الظن الغالب، ولكنها في الواقع توصل إلي اليقين لأنها تعتمد على أقوى المقدمات إلزاما وأقربها واشدها التزاما(٤٣).

خامسا: الجمع بين قوة الإقناع و براعة الجمال والإمتاع(٤٤). يمتاز الأسلوب القرآني عموما ببراعة الجمال الفني تصويرا وتشويقا ونظما ، مع ما يحمله من قوة الإقناع والتأثير، ولا شك أن جانب الإقناع أكثر ما يتجلى في جانب الدعوة والحوار والجدال، وهو في هذا لا ينقص عن مرتبة الإعجاز في جمعه لعناصر الجمال الفني للكلام البليغ في ذروته. ولئن كان القرآن الكريم يلم بمجامع البلاغة في سائر ما يعالج من وجوه المعاني التي يتصرف فيها من القصص والمواعظ، والاحتجاج، والحكم، والأحكام، والوعد والوعيد ، والتبشير والتخويف، حيث تصرف في هذه الوجوه على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف الذي لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا(٤٥). فجمعه بين قوة الإقناع في الحوار والمحاجّة مع جمال الإمتاع أشد غرابة؛ ذلك لأن الحجاج والحوار إنما يخاطب العقول بالحقائق المجردة، والإمتاع والجمال إنما ينبعث من جانب المشاعر العاطفية والوجدان، ومن العسير أن يلم أحد من الناس بكلا الجانبين مهما أوتي من الحكمة والبلاغة

يقول الأستاذ دراز :" فسل علماء النفس هل رأيتم أحدا تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على السواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس دفعة واحدة؟ يجيبوك بلسان واحد : كلا بل لا تعمل إلا

متناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها"(٤٦).

وسر ذلك أن الحكيم إذا توجهت نفسه لمخاطبة العقل يستجلي الحقائق ينحصر همه في برهانها لا يبالي بعدها بما فيها من جفاف وعري، والشاعر والأديب حين يستجلب النفوس ويخاطب العواطف تذهب نفسه عن قوة البرهان وإشباع العقل . أما أن تجد أسلوبا يجمع بين هاتين النهايتين فذلك ما لا تظفر به في كلام البشر ... ثم يتساءل الأستاذ دراز قائلا :" فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين مع المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين"(٤٧).

ثم يجيب عن هذا التساؤل بأنك لن تجد مثل هذا إلا في كلام من لا يشغله شأن عن شأن، فيقول بأسلوبه الرشيق: "ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن . وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان . وأن يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين وهذا، هو ما نجده في كتابه الكريم حيثما توجهت.." (٤٨).

سادسا : براعة التصوير الفني الذي يظهر جليا في مجال الحوار حيث تظهر الألفاظ مشاهد الحوار بأشخاصها وانفعالاتها وحركاتها كأنها مشاهدة محسوسة. فمن عناصر الجمال في الحوار القرآني أن نظم الكلمات بألفاظها تصور لك المعاني كأنما هي صور مجسدة متحركة يقول سيد قطب (٤٩)- رحمه الله- وهو يتحدث عن تصوير الألفاظ القرآنية للمعاني الذهنية بصورة متخيلة :" ثم يرتقي بالصورة التي يجسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض، وحادث يقع. فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعالات بشتى الوجدانات المنبعثة من المواقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . إنها لحياة هنا، وليست حكاية الحياة "(٥٠).

هكذا يظهر سيد قطب أهمية الحوار بين عناصر العمل الفني لتظهر الأحداث الماضية على مسرح الحياة كأنما تنقل نقلا حيا تتخيلها أمامك، ولنأخذ نموذجا من تفسيره يوضح ذلك، حيث يقول في تفسيره لقوله تعالى : [وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ][الأنعام:٢٥-٢٨] يقول: "ويمضي السياق يصور حال فريق من المشركين؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد القيامة ... يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك، مطموسي الفطرة، معاندين مكابرين، يجادلون رسول الله ε وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير لأولين؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا ... يصور حالهم هكذا في الدنيا في صفحة، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم

مشهدا كئيبا مكروبا؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها، وهي تواجههم بهول المصير الرعيب؛ وهم يتهافتون متخاذلين؛ ويتهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير.

إنهما صفحتان متقابلتان: صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض؛ وصفحة في الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة.. يرسمهما السياق القرآني، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحي؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية؛ ويهز بها هذه الفطر هزا، لعل الركام الذي ران عليا يتساقط، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان"(٥١).

ومن أحسن في الكشف عن هذا الجانب الحارث المحاسبي(٥٢) في رسالته (التوهم) حيث يعني بها التصور والتخيل، وذلك أنه يعرض الحقائق الإيمانية الغيبية مما جاء في الكتاب والسنة مصورة كأنما هي مشاهدة أو محسوسة تعرض أمام خيال الإنسان كأنها رأي عين، بل كأنما يعايشها متمتعا بنعيمها، أو مكابدا لمرارتها.

ومحصلة الأمر أن الحوار القرآني بما يحويه من جدل وبراهين تحمل الحق واليقين بأسلوب شيق ممتع مصور يأخذ بمجامع النفس الإدراكية ليمزج في الخطاب بين العقل والعاطفة، فيجمع إلى برد اليقين تفاعل المشاعر والأحاسيس لتهتز النفس وتربو تحت صيب من نظم الألفاظ القرآنية بما تحمل من انفعالات اليقين والخوف والرجاء والتعجب، فتظهر ب إشراق، وتنفث في الحقائق البرهانية العقلية المجردة روحا من الجمال والوجدان لتخاطب العقل والقلب معا.

ويمكن أن ندرك آثارها على النفس من داخلها وخارجها حتى تسلمها إلى سكون الخشوع: [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ][الزمر:٢٣].

سابعا: القدرة الباهرة على مخاطبة النفس من مداخلها التأثيرية كافة والدخول إليها من جهة غرائزها ومطالبها الضرورية العاجلة والآجلة، دخول الخبير ببواطنها العليم بخفاياها.

من أهم خصائص الحوار القرآني أنه يخاطب الإنسان خطاب الخبير بالخصائص الذاتية للنفس البشرية التي فطرت عليها، بما تحويه من غرائز وحاجات عضوية: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ][الملك: ١٤]، تلكم الخصائص التي تدفع الإنسان للبحث والتنقيب عن الوسائل والطرق التي تشبع هذه الحاجات، وقد يخطئ الإنسان طريقها، ولا يجد من يرشده إلى إصابة عين الحق في تحقيق مصالحها ، وإقامتها على انجح السبل وأقومها ، للوصول إلى أحسن الثمرات مع توقي السلبيات واستثمار الإيجابيات سوى القرآن:[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ] [الإسراء: ٩]. أما الحاجات العضوية فهي الضرورات أو الحاجات التي لا قوام للجسم البشري إلا بها، ولا غنى له عنها، ويجد الدافع من ذات نفسه يلح لإشباعها كالطعام الشراب، والتوقي من الحر والبرد، ومظاهرها؛ الجوع العطش والإحساس بالحر والبرد. وقد جمعها القرآن في وعد آدم بتلبيتها في قوله تعالى:[إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى][طه: ١١٨- ١١٩]. وأما الغرائز فهي؛ ما جبل الإنسان على حبها وحب لوازمها. وهذه الغرائز هي؛ النوع، وحب البقاء، والتقديس أو التدين(٥٣).

أما مظاهر غريزة النوع فالحنان والعطف والميل الجنسي، والانتماء إلى الأسرة والبيت والقبيلة .وقد ذكرها القرآن كاشفا عنها بقوله :[وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً][النحل: ٧٢]. وقال:[وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا

وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا] [الفرقان: ٥٤]. وذكر وسائل إشباعها على سبيل الامتنان فقال : [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ][الروم: ٢١].

وأما غريزة حب البقاء فمظاهرها حب المال والتملك، والحرص والطمع، وحب الخلد، وطول الأمل وقد كشف القرآن عنها بقوله : [وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا] [الفجر: ٢٠]. وفي الحديث الشريف {يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان؛ الحرص على المال والحرص على العمر }(٥٤). ومنها دخل إبليس إلى إغواء آدم حين قال :[يَآدَم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى] [طه: ١٢٠].

وأما غريزة التدين فمظهرها إحساس الإنسان بضعفه وحاجته إلى إله، وتقديسه لما يعتقد أنه الخالق المدبر(٥٥). وهو الذي دفع الإنسان إلى عبادة الآلهة المتنوعة، حتى لم تخل أمة من الأمم من وجود دين تدين به، سواء أصابوا أم أخطئوا. مع إحساس هذه الأمم أن الإله الذي تشعر به الفطرة هو إله عظيم وأن هذه الآلهة إنما يعبدوها لتقربهم إلى الله زلفى [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى][الزمر: ٣]. وقد كشف القرآن عن وجودها مع بداية خلق الإنسان بقوله تعالى [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ][الأعراف: ١٧٢] كما كشف عن اضطرار الإنسان إلى الاعتراف بها عند الشدائد التي يدرك بفطرته عجز الآلهة المزعومة عن حمايته أو إنقاذه فقال : [وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ][الإسراء: ٦٧] وإذا تأملت آية الكرسي وجدتها تجمع الصفات التي تدين بها الفطرة في الإله الحق الذي تطمئن إليه النفس وتخشع في إشباع غريزة التدين

ولما كان الإيمان بالله هو الهدف الأسمى الذي وجدت الحياة كلها من أجله فإنه يتضمن الطريق الصحيح الموصلة إلى تلبية المطالب والغرائز الأخرى وتنظيم إشباعها، أما هي فعاجزة عن تلبية مطالب الدين، " ذلك أن الحاجات النوعية قد تحقق أغراضها في كل زمن، وتتوافر أسبابها في كل حالة، وهي حفظ النوع وبقاء الحياة، ولا يزال الإنسان بعد تحقيق أغراضها وتوافر وسائلها في حاجة إلى الدين . وغرائز الإنسان النوعية واحدة لا تختلف من إنسان إلى آخر ولكن الدين يختلف فإن أصاب أدرك الإنسان معنى الحياة وإن أخطأ كانت حياته بلا هدف.ولو أنه حقق كل مطالب النوع فإن ذلك لا يغنيه عن طلب الحياة الأبدية لأنه يريد لحياته معنى لا يزول، ويريد أن يتصل بحياة الكون كله في أوسع مداه"(٥٦). ولهذا كان كل نبي يبدأ رسالته بالدعوة إلى الله أولاً: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ] [النحل: ٣٦] وكانت مقدمة عليها والأخرى تابعة لها لا معها ولا خارجة عنها، قال تعالى :[قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] [التوبة: ٢٤] وهذا يعني أن ما تتعلق به النفس مما يشبع غرائزها ينبغي أن لا يقدم على حب الله ورسوله ، وبذل النفس والمال للمحافظة على الدين؛ لأنه مفض إلى الخروج عن المنهج السليم. ذلك أن الحاجات والغرائز ووسائل إشباعها إنما هي نعم من الله، فمعرفة المنعم أساس لشكر النعمة ، وتحقيق الدين يحقق المطالب الأخرى، ولكنها عاجزة عن تحقيق مطالب الدين.

ولك بعد هذا أن تتأمل في خطابات القرآن للإنسان، وحوارات الأنبياء مع أقوامهم كيف تدفع الإنسان إلى الطاعة والإيمان من خلال البحث عن انجح السبل وأدومها لتلبية هذه المطالب وإشباع هذه الغرائز، والتحذير من الحرمان منها والوقوع في مكدراتها، أي تحقيق مصالح الإنسان الحقيقية، بجلب المنافع ودرء المفاسد، لذلك كانت دعوات الأنبياء تحمل جانبي الترغيب بالنعم، والترهيب من النقم العاجلة والآجلة، فآيات تخاطب

الإنسان فترغبه بنعيم المؤمنين وتحذره من عقاب الكافرين كقوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً] [النساء: ٥٦-٥٧].

وآيات تنذر، وآيات تبشر؛ تبشر بنعيم الدنيا ومتاعها الحسن، وتنذر من عذاب الآخرة قال الله تعالى:[أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ◌ٍ◌ٍ◌ٍ◌ٍ◌ٍ◌ِ][هود: ٢-٤].

وآيات تبين تعاقب الحسنات والسيئات لتكشف سنة الله تعالى في الأمم في الابتلاء بالرخاء والشدة، وتكشف عن سنته تعالى في ربط تنزل بركات السماء والأرض بالإيمان : [وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ* أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ][الأعراف: ٩٤- ٩٩].

ومنها قوله تعالى متحدثا عن جانب من حوار نوح عليه السلام مع قومه : [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا] [نوح:١٠-١٢]

ويضرب المثل بأمة يونس عليه السلام التي آمنت فرفع عنها البلاء وحل بها الرخاء : [فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ][يونس: ٩٨].

كما يحتج على المعاندين بلزوم العبادة والإذعان لمن له الفضل في تحقيق لوازم العيش والاستقرار قال تعالى: [فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ][قريش:٣- ٤].

كما يحتج على لزوم التصديق والتسبيح (٥٧) باسم الله العظيم لأنه الفاعل الحقيقي لأسباب العيش ووسائل المتاع، قال الله تعالى : [نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ* أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ* نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ* إِنَّا لَمُغْرَمُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ* لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ* نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ* فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ] [الواقعة: ٥٧- ٧٤].

وتظهر صورة الإعجاز القرآني بالمقارنة بين أثر الدعوة القرآنية عند من يدركها، وتستقر في نفسه ، ويتفاعل معها، مع أثر إغراءات الدنيا والنيل من سلطانها ومتاعها في موقف السحرة حين أعرضوا عن كل ترغيبات فرعون وترهيباته: [قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ] [الأعراف:١٢٣-١٢٦].

[قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى* قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِالْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى][طه:٧١- ٧٣].

ومن هذا الأثر ما نرى في تجاوب المؤمنين مع نداء الجهاد القرآني حين يعلن البيعة على النفس والمال تجاوبا لا تعرفه الحياة البشرية في غير ميدان القرآن العظيم قال الله تعالى :[إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ][التوبة: ١١١]. فيقول قائلهم عندما يحين وقت الوفاء فزت ورب الكعبة، أو يتمنى أحدهم أن تكون له مائة نفس يقتل بعددها في سبيل الله.

وأقوم السبل في مخاطبة النفس بهذه المعاني الدخول إليها من جهة العقل ببث الآيات والدلائل عليها سواء في النفس أو الآفاق، ممزوجة بالتأثير العاطفي الجامع بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء والتشويق والتنفير، كما يرشد إلى السنن الإلهية في الإنسان والكون، للانتفاع بها وأخذ العبرة منها . نجد هذه في آيات كثيرة منها قوله تعالى : [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ* كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْموقِنِينَ* وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ* وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ] [الذاريات: ١٥-٢٣]. وقوله: [وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ][الأنعام: ٤٢-٤٦]. هكذا يلفت الأنظار إلى تصريف الآيات في أنواعها ومداخلها.

ثامنا: التفنن في تصريف أساليب الخطاب بما يتناسب مع المقام. فإن القرآن و هو ينوع أساليب الدخول إلى النفس البشرية، فإنه كذلك ينوع أساليب الخطاب متخيرا ما يناسب المقام من أفانين اللغة فمن ذلك:

١ –أنه يجري الخطاب على طريقة الأقيسة المنطقية بطرق التضمين لا بطريق التصرح متجنبا الجفاف الذي تذكر فيه المقدمات والنتائج بحيث لا تصلح إلا لطائفة لها ثقافتها الخاصة (٥٨). ولكنه يورد الحجة بطريقة ميسورة، تتضمن المقدمات والنتائج لمن أراد استخراجها . فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا][الأنبياء: ٢٢]، وصورتها أن تقول : لو كان للعالم إلهان لفسد. فهذه مقدمة. ومعلوم أنه لم يفسد (من خلال الواقع) فهذه مقدمة ثانية . فيلزم عنهما نتيجة ضرورية هي نفي تعدد الآلهة (٥٩). وذكروا من ذلك أن أول سورة الحج إلى قوله تعالى :[وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ][الحج: ٧] فيها خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات(٦٠). وسنعود إلى هذه القضية بتفصيل أوفى في الحديث عن تنظيم القرآن للبرهان الجدلي ضمن ميزان منضبط.

٢- استخدام أسلوب القول بالموجب . ومعناه: رد كلام الخصم من فحوى كلامه (٦١). ويجعلونه قسمين : **أحدهما:** أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى:

[يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ][المنافقون: ٨] فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، وا لأذل كناية عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم، وهو الله ورسوله والمؤمنون، وكأنه قيل: صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المخرَج والله ورسوله الأعز المخرِج(٦٢).

الثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على غير مراده مما يحتمله، بذكر متعلقه ومنه قوله تعالى : [سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ][التوبة: ٩٥] أرادوا إعراض عفو وصفح وأراد إعراض اجتناب ومقت ومفارقة(٦٣).

٣- أسلوب الانتقال : وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذا فيه، لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، أو أراد أن يراوغ فتنقله إلى ما لا مجال فيه للمراوغة أو الخفاء، كما جاء في مناظرة الخليل للجبار لما ادعى أنه يحيي ويميت قال له: [قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ] [البقرة: ٢٥٨](٦٤).

٤- مجاراة الخصم . وذلك بتسليم بعض مقدماته، للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه، وذلك كقوله تعالى:[قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ* قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ][إبراهيم:١٠-١١]. فليس المراد أنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، بل كأنهم قالوا : إن ما ادعيتم من كوننا بشر اً حق لا سبيل إلى إنكاره، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة (٦٥) . ومن هذا النوع قول إبراهيم عليه السلام
في محاجّة قومه: {هذا ربي}(٦٦).

٥- التسليم: وهو أن يسلم بوقوع المحال تسليما جدليا، ليبين ما يترتب على ذلك من أمور محالة، وقد يبدأ الكلام حينئذ بحرف امتناع ليدل على أنه ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، كما في قوله سبحانه : [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا][الأنبياء: ٢٢] وحينا ينفي صراحة، ثم يسلم وقوعه تسليما جدليا، لا يلبث أن يحكم الواقع بانتفائه كما في قوله تعالى : [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ][المؤمنون: ٩١]. فالمعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه إلها لزم من ذلك ذهاب كل إله من الإثنين بما خلق، وعلوّ بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرض وجود إلهين محال، لما يترتب عليه من المحال(٦٧).

٦- الإسجال: وذلك بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها، كما في قوله تعالى :[وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ][الأعراف: ٤٤] وفي مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين والمنكرين ولإثارة الخوف في أنفسهم، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم، ويدفعهم الخوف إلى التامل، عساهم يهتدون (٦٨).

تاسعا: القدرة على استخراج خفايا النفوس وما تكنه في بواطنها، خلاف ما تظهر، بما يفحم الخصم ويبهته، وذلك أن القرآن حين يخاطب النفوس يحاورها حوار من يعلم دخائلها وخفاياها، وهذا المعنى يعبر عنه الصحابي الجليل كعب بن مالك τ الذي حقق الإيمان ونال به توبة سجلها القرآن لا تزال تتلى ما بقيت الدنيا، وذلك حين تخلف عن غزوة تبوك، واعتذر المنافقون، ولكنه قال: "يا رسول الله؛ إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم

حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، وإن حدثتك حديث صدق تجد (٦٩) علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل، والله ما كان لي من عذر"(٧٠).

فانظر إلى هذا الصحابي بما يتمتع به من موفور العقل وقدرة على الجدل إلا أنه يدرك أن الجدل مع النبي ε والوحي ينزل يكشف عن خفايا النفوس بما لا تنفع بلاغة المجادل وإن ملك القدرة على قلب الحقائق . انظر إليه كيف يحاور الأعراب وقد تخلفوا عن رسول الله عندما عزم على المسير إلى مكة لأداء العمرة : [سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا] [الفتح: ١٠-١٢].

وفي حديث القرآن عن قوم فرعون يكشف خفايا النفوس حيث يقول: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا][النمل: ١٤]. والمعنى جحدوا بها في ظاهر أمرهم وعلموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكنهم أظهروا العناد والمكابرة ظلما من عند أنفسهم(٧١).

وانظر كيف بهت إبراهيم عليه السلام النمرود عندما كشف له حقيقة قدره الذي يعلمه من نفسه، وكشف زيف دعواه، بما أعجزه حتى عن المكابرة [فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ][البقرة ٢٥٨]، قال ابن كثير:" فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي؛ أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة"(٧٢).

ومن أجلى الشواهد على استخراج ما في النفوس ما نجده في حوار النبي ε مع فريق من النصارى كما ذكرته سورة آل عمران في آية المباهلة وهي قوله تعالى:[فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ][آل عمران: ٦١].

أخرج البخاري عن حذيفة τ قال جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ε يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا (يعني للنبي ε) إنا نعطيك ما سألتنا (٧٣) وابعث معنا رجلا أمينا ولا تبعث معنا إلا أمينا . فقال: "لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين " فاستشرف لها أصحاب رسول الله ε. فقال: "قم يا أبا عبيدة بن الجراح " فلما قام قال رسول الله ε: "هذا أمين هذه الأمة"(٧٤).

وذكر ابن إسحاق هذه القصة بتفاصيل أوفى نأخذ منها موضع الشاهد، وذلك أنها جرت محاورة بينهم وبين النبي ε، فلما نزلت هذه الآية دعاهم إلى ذلك، فقالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب (وكان أميرهم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم) فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم(٧٥).

عاشرا: عرض الآراء المختلفة التي تمثل أطراف الحوار بأجلى صورة وأوضح بيان دون زيادة أو نقصان(٧٦).

قد يكون الحوار بين أطراف متوافقة من حيث المقصد وإن اختلفت وجهات النظر، كحوار موسى عليه السلام مع العبد الصالح، أو حوار المشاورة كحوار ملكة سبأ مع ملئها، وقد يكون بين أطراف مختلفة، وهو الغالب الذي يلزم فيه المغالبة وإظهار الحجة، وفي جميع هذه الأحوال نجد القرآن الكريم يكشف وجهة نظر

كل فريق بأمانة ودقة أوضح مما لو أراد أن يتكلم عن نفسه، ذلك أن تقديم الحجج المؤيدة والمعارضة في الموضوع الواحد يكون أكثر فعالية وأقوى أثرا، وأمكن في ترسيخ المعاني المراد إيصالها ، كما أن القرآن لا يضيق ذرعا بذكر آراء المخالفين مهما بلغت عارضتهم، أو خفي الباطل ولبس، لأنه لا يفوته كشف باطلها وإظهار زيفها، ولنشدانه الحق الصريح(٧٧). ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ][البقرة: ٣٠- ٣٣](٧٨).

وإذا أردت المزيد من الأمثلة فتأمل النماذج المذكورة في المظهر الثالث من مظاهر الإعجاز في هذا البحث، فترى كيف يعرض أقوال كل فريق بعرض واضح ثم يكر عليه بالرد والإبطال.

وفي خطاب الموافقين المصدقين يساير دخائل النفوس فيكتفي أحيانا بالحكم دون تعليل كما في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ][البقرة: ١٧٢-١٧٣].

وقد يستطرد في التعليل والإقناع؛ لانتزاع ما في النفوس من غلبة الإلف والعادة، وهنا ترى تمازج الحوار الهادف إلى غرس القناعة في النفس مع التشريع دون الاكتفاء بالأمر والنهي المجرد، كما في قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ][المائدة:٩٠- ٩١].

حادي عشر : تتبع الشبهات من أقاصي النفس والإحاطة بموضوع الحوار من كافة جوانبه . ينضاف إلى الوجه السابق أن القرآن حين يتناول القضية المطروحة يلم بها من كافة جوانبها، ويتتبع أطرافها وأبعادها في النفس البشرية، ويطارد في ثناياها الوساوس والهواجس، بحيث لا يدع شاردة ولا واردة منها ولا يذر، متابعة العليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور . قال تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ][ق: ١٦]. تأمل في هذه الآيات التي يطارد بها وساوس المشركين حول نبوة محمد ε:[فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ][الحاقة: ٣٨-٤٣](٧٩). وفي قوله تعالى : [وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ][التكوير: ١٧-٢٧]. انظر كيف يغلق دونهم كل أبواب الهرب أو سبل الفرار من الإقرار، ولا يدع لهم ذريعة أو بابا للفرار إلا أغلقه دونهم، فأين تذهبون؟ إذ لا مناص من التسليم والإذعان. قال سيد قطب : " أين تذهبون في حكمكم وقولكم؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم!"(٨٠).

واقرأ قول الله تعالى : [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا يَتَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ][القلم: ٣٥-٤١]. فانظر في هذه الآيات كيف ترد على المشركين دعواهم أن لهم في الآخرة مثل ما للمؤمنين بل أفضل، وقد وبخوا وقرعا باستفهامات

سبعة؛ الأول : [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ]، والثاني:[مَا لَكُمْ]، والثالث:[كَيْفَ تَحْكُمُونَ]، والرابع: [أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ]، والخامس: [أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ]، والسادس: [أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ]، وللسابع: [أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء](٨١). فانظر هذه الأسئلة المتوالية كيف تحكم عليم الطوق وتغلق دونهم أبواب اللجاجة. قال البيضاوي: "وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق (٨٢) أو وعد أو محض تقليد على الترتيب تنبيها على مراتب النظر وتزييفا لما لا سند له"(٨٣).

ثاني عشر : اشتمال الأدلة القرآنية على البراهين والأقيسة ذات المقدمات والنتائج القائمة على ميزان منضبط يحوي محاسن ما وصل إليه العقل البشري في ميدان الحوار والبحث والمنطق، سليما من عيوبه ومزالقه، يهدي إلى سبيل الحق والرشاد يعصم من الوقوع في الخطأ، سواء في العقيدة أو الشريعة أو السلوك، قال القاضي عياض(٨٤) في الشفاء في ذكر إعجاز القرآن:"فجمع فيه من بيان علم الشرائع والحجج والتنبيه على طرق الحجج العقليات والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد"(٨٥). أي أنه يشتمل على الدليل الهادي إلى الحق بما يمتاز به من قوة ووضوح، وبتنبيهه على (طرق الحجج العقليات) أي أن للمحاجة العقلية طرقا خاصة منضبطة، سماها القرآن ميزانا ، غرضه الكشف عن صحة الاستدلال وسلامته، وبهذا اللفظ عبر عنه ا كل من الإمامين الغزالي وابن تيمية (٨٦) واستدلا عليه بقول الله تعالى:[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ][الحديد:٢٥]. وقوله:[وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ] [الرحمن: ٧-٩]، وليس هذا الميزان خاصا بالأعيان، بل يشتمل على ما تعرف به المقادير من الأوزان والأطوال والأحجام، كما يعرف به تماثل المتماثلات واختلاف المختلفات، وكذلك تعرف به الفروع المقيسة على أصولها من الشرعيات والعقليات التي تعرف بالموازين المشتركة بينها وهي الوصف الجامع المشترك الذي يسمى الحد الأوسط(٨٧)، أو العلة(٨٨) التي يمكن البحث عن وجودها أو عدمه لإدراك التماثل أو التباين بين الأشياء، وحين نجد القرآن العظيم يستخدم هذا الأسلوب ويرشد إليه (٨٩)، ندرك من خلاله ميزان الفكر الذي يكشف الحق من الباطل.

ويمكن أن نشير إلى أهم ما تميزت به طريق القرآن إلى الهداية والمعرفة عن طريق الفلسفة وذلك من جوانب متعددة منها:

١- اعتماد الحواس طريقا سليما إلى معرفة الماهية دون تشكيك في صحة نتائجها، وإلا لما وثق بمعرفة أبدا. وقد ارشد القرآن إلى ذلك في آيات عدة منها قوله تعالى: [وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً][الإسراء: ٣٦]، وهذا بالطبع يهيئ الأسباب للناس جميعا لأدراك المعلومات الأولية المبثوثة في صفحات الكون اللازمة لإعمال الفكر، كما يوجِدُ قدرا مشتركا من البدهيات والمسلمات التي تعد الركائز والمنطلقات للترقي في التفكير.

٢- الاعتماد في تحديد الماهية على الوجود الخارجي لا على التصور الذهني، في حين يعتمد المنطق على الحد، وهذه الطريق تعرضت لانتقادات كثيرة (٩٠). ودليل ذلك قوله تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] [البقرة:٣١] فانظر كيف عرض المسميات، ثم أشار إليها، مما يدل على وجودها في الخارج، لأنه الطريق إلى التصور الذهني.

٣- تنوع الأدلة واختلاف طرقها وعدم اقتصارها على الأقيسة المنطقية كالتجربة والسبر والتقسيم، والقياس المبني على العلة، والاستقراء (٩١). وذلك أنه غلب على من أولع بالمنطق أن الأدلة العقلية لا تكون إلا بهذا اللون من الأقييسة المنطقية والأشكال البرهانية، وهي لا

تعدو أن تكون طريقة من الطرق البرهانية إذا صحت مقدماتها، وثبت التلازم بينها.

٤- سهولة الأدلة ويسرها بقربها من الفطرة وعدم تقيدها بمصطلحات خاصة لا يتقنها إلا أهل الصنعة . وقد بينا تحت عنوان خطاب القرآن لكافة مستويات الناس

٥- سموها في الأهداف والغايات؛ حيث تهدف المعرفة القرآنية إلى تعريف الإنسان بخالقه، وتعريفه بنفسه، وما لله عليه من حق، وما للعبد عند الله من حق، ليبصر طريق السعادة العظمى : [هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى][النازعات: ١٨-١٩] [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] [الصف: ١٠].

٦- صحة الاحتجاج على الغير بالمجربات والمتواترات. إذا كان المناطقة لا يحتجون إلا بما أثبته العقل ويقولون بأن المتواترات لا يقوم بها البرهان على المنازع (٩٢). وغرضهم من ذلك إنكار ما تواتر عن الأنبياء صلوات الله عليهم من البراهين والآيات والمعجزات . والواقع أن شهرة الأنبياء وأحوالهم أكثر ظهورا من أخبار المناطقة ولهذا كان التأريخ عند الأمم يرتبط بهم لا بأخبار المناطقة(٩٣).

٧- تتميز الأدلة القرآنية أنها تفيد اليقين بنفسها وتحمل الحجة والبرهان بذاتها، لأنها تبني احتجاجها على البدهيات والمسلمات. وتوصل إلى التعريف بما لم يكن معلوما.

ذلك أن القرآن حين تحدى العرب أن يأتوا بمثله، أو بسورة مثله، إنما تحدى مصاقع الخطباء، وفطاحل الشعراء والفصحاء، وأكابر البلغاء، الذين ذاع صيتهم، واشتهرت منازلاتهم ومساجلاتهم . وكذلك حين تحدى البشر أن يأتوا بسورة من مثله (٩٤)، إنما تحدى شوامخ القمم وشواهق الإبداع في الإنجاز البشري . وما من إبداع بشري بلغ الناس فيه غايته، وبذلوا أقصى ما لديهم، فوضع أمام جنسه مما جاء في القرآن العظيم إلا بدا عواره وعجزه وقصوره، كقوم اجتهدوا في اختراع المصباح لتبديد الظلام، وبالغوا في تحسينه وتقوية إضاءته حتى بلغوا فيه غاية ما عندهم، فلما طلعت الشمس بهت نوره واضمحل أثره.

وكذلك المنطق فقد حوى الكثير من محاسن إبداع العقل البشري، وبلغ أعالي ما يمكن أن تصل إليه طاقة الإنسان، ولكنه ظل عاجزا عن الوفاء بأغراض البحث والمعرفة في كافة جوانبها، قاصرا عن الوصول إلى اليقين الذي يتفاعل مع النفس ويترك أثره فيها بحيث تطمئن إليه. فلما نزل القرآن العظيم فعل فعله بالنفوس حتى بذلت المهج والأرواح في سبيله راضية مطمئنة . وكان الفرق بين الأثرين كما بين نور السراج ونور الشمس.

ثالث عشر : الإيجاز(٩٥) في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى: فإذا انضاف إلى الوجوه السابقة أنه يجمعها بأوجز عبارة وأجمعها دون أن يؤثر ذلك على ظهور المعنى بكماله من غير نقصان، أدركت أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر. وإذا كان الإيجاز من أهم خصائص البليغ من الكلام (٩٦)، فهو في القرآن أسماها درجة وأعلاها منزلة (٩٧). وإذا كان الإيجاز في سائر الموضوعات والمجالات جميلا محببا فهو في ميدان الحوار أشد جمالا بل أكثر ضرورة، لأن من عوامل نجاح الحوار أن تنقل المعنى إلى الطرف الآخر وافيا غير منقوص، دون إسهاب ولا إملال، ولا أن تشغل فكره بما لا يدخل في موضوع الحوار، أو تشتت فكره عن أهم عناصره إلى فروعها وجزئياتها، دون أصولها وأمهاتها.

والجمع بين هذين الوصفين في كلام البشر لا يخلو من وهن . والإبداع فيه نسبي، لا يبلغ درجة الكمال، "فالذي يعمد إلى ادخار اللفظ وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلا أو كثيرا، وذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده

جملة لا تفصيلا ...، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل، لكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرجه ثوبا متقلصا يقصر عن غايته، أو هيكلا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب . ورب حرف واحد من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكسف شمس فصاحته، ورب اختصار يطوي الكلام طيا يزهق روحه ويعمي طريقه ويرد إيجازه عيا وإلغازا"(٩٨).

وعامة من أن يفي بحق المعنى يجد نفسه مسوقا إلى أن يمد في الكلام مدا، لأنه لا يجد في القليل ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة . فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، فيبطيء بالوصول إلى غايته، مما يذهب بنشاط السامع، ويفتر عزمه، وتجعل من كلامك حاجزا لكلامك أن يبلغ غايته (٩٩). وذلك إذا كان يعمد إلى معنى واحد، فكيف إذا أراد أن يجمع في الكلام القلي ل أكبر قسط من المعاني.

ولكنك حين تنظر في القرآن حيثما شئت، ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان من غير فتور ولا انقطاع، تجد بيانا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، ووفى بحاجة المقام خير وفاء، لا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك كل المعاني ال تي أراد نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه. فكل عضو من أعضاء الكلام يؤدي دوره، فالحروف في كلماتها والكلمات في جملها والجمل في نظمها، كل ذلك يؤدي رسالة يفي بغرضها، ولا يغني عنه في مكانه سواه(١٠٠).

ولو أننا وقفنا عند نموذج من حوارات القرآن العظيم لنرى براعة الإيجاز مع غزارة ما تحويه من المعاني، وعلى الأخص ما يتميز به الحوار القرآني من عناصر السمو والتميز التي نحن بصد دها وليكن ذلك في قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ][البقرة: ٢٥٨]. كم حوت هذه الآية الكريمة ذات الكلمات المحدودة الكثير من المعاني والمقاصد التي تعد من أهم لوازم الحوار منها:

١ –الكشف عن طرفي الحوار وموضوعه وأسبابه؛ فطرفالحوار هما: إبراهيم عليه السلام، والذي حاجّه في ربه، وقد كشف عن صفته حين قال [أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ] فهو إذن ملك زمانه . وأما موضوع الحوار فهو : رب إبراهيم كما يظهر من قوله: [حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ]. وأما السبب الحامل على هذه المحاجة فهي : ما رأى فيه الملك نفسه م ن أبهة الملك وزهوته وغروره، مما جعله جاحدا لمن أنعم عليه بهذا الملك(١٠١)[أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ] فهذه الجملة دلت على صفة المجادل، وسبب جداله، كما كشفت عن مدى الجحود، ووضعه له موضع الشكر، ودلت على اغترار هذا النوع من البشر وتعاليهم على أهل العلم والفكر، خاصة الدعاة إلى الله وحملة الفكر الصائب، حيث يمثل هذا الحوار صراعا بين سلطان الملك وسلطان العلم حين يفترقان.

وفي صيغة الاستفهام التعجبي (١٠٢) [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ] !تلمس إثارة التعجب ممن يحاج إبراهيم عليه السلام في أمر هو به خبير وبمعرفته جدير فهو مختص بهذا، مرجع لكل من أراد إصابة عين الحق والسداد فيه، فهو الذي آتاه الله رشده، وآتاه الحجة على قومه وهو علم التوحيد، ثم تجد من يجادله فيه؟ مهما كانت مؤهلاته، ولو كان الملك.كما فيه تعجيب من جرأة الكافر على المحاجة في الله تعالى، وفي نسبة الرب إلى إبراهيم مع أنه رب الملك أيضا، ورب كل شيء، فيه من المقاصد ما يدل على إخصاص إبراهيم بمزيد الصلة بهذا الرب الذي تفرد إبراهيم في ذلك

العصر بالدعوة إليه والمجاهدة في سبيله، فحاز منه منزلة الخلة، وحظي منه بالنصرة والعناية حتى أبطل خاصيةَ الإحراق من النار من أجله . كل ذلك مما يكشف عن ضرورة وجود المؤهلات، والتكافؤ في أطراف الحوار.

٢ –مجريات الحوار؛ كيف بدأ، وكيف يعزز الدعوى ببرهانها، حيث قال إبراهيم عليه السلام [رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ] فالدليل على أنه الرب لا رب سواه أنه يتفرد بالإحياء والإماتة التي يعجز عنها كل من سواه . فقال الملك: [أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ] مدعيا أن الأسباب التي يقوم بها البشر مما يؤدي إلى وجود الحياة أو الموت كالوقاع أو القتل ونحوه هو عين الإحياء والإماتة، خاصة مما يقع تحت سلطان الملك، كالحكم بالإعدام، أو العفو عنه. وكان ذلك منه على سبيل المراوغة في مفهوم الإحياء والإماتة، فعدل إبراهيم عليه السلام عن هذه الحجة لا لضعفها وعجزها عن الإثبات، بل لوجود شبهة مدخل يتذرع به الخصم ويناور مما يفتح بابا للمماحكة خاصة، فقال: [فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ]. فيكون إبراهيم عليه السلام قد حقق أغراضا عدة منها:

١- البراعة في تحقيق أسلوب الانتقال من حجة إلى حجة أقوى وأسرع في الإجهاز على حجة الخصم
٢- الكشف عن سرعة البديهة وأهميتها في الحوار.
٣- قطع دابر المراوغة بإزالة أسبابها، حيث راوغ الخصم في مفهوم الإحياء والإماتة، وأراد أن يصرف المعنى عن حقيقته، ولا شك أن تحديد المفاهيم والمصطلحات أمر ضروري لضبط الحوار
٤- عدل عما يوهم وقوعه تحت سلطان الملك، مما يجعله مدعيا للألوهية إلى ما ليس للملك عليه شبهة سلطان ولا تأثير، وهو مما يقع في حيز العالم العلوي. فهل من سلطان لأحد من البشر على الشمس والقمر والنجوم والسماوات؟ولو كان الملك
٥- العدول عن الاسم النسبي إلى الاسم العلم، ليكون أبلغ في إظهار المقصود، وأدعى إلى إيقاع المهابة في نفس العنيد، فلم يقل إبراهيم فإن ربي يأتي بالشمس من المشرق، بل قال فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، حيث أراد اللعين أن ينسب إلى نفسه الربوبية، وأنه رب كل من في مملكته، وأراد إبراهيم عليه السلام أن يذكر ربه بهذا الاسم العلم الكبير التي ترتعد الفرائص عند ذكره، وتذل الجبابرة لعظمته، ويبهت المتكبرون لهيبته.
٦- تضمنت محاجته إبراهيم عليه السلام الميزان العقلي في الاستدلال؛ ذلك أن الحجة اشتملت ضمنا على أصلين تولدت عنهما نتيجة وصورة وذلك أن تقول:" كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل. وإلهي هو القادر على الإطلاع، وهذا أصل ثان . فلزم من مجموعهما أن إلهي هو الإله دونك"(١٠٣).
٧- كما تظهر هذه المحاجة صورة إفحام الخصم المعاند بمجابهته بما يعلم من نفسه من العجز والقصور عما يدعي مما يريد إخضاع الناس له بالظلم والتجبر، فجاءه من يرده إلى صوابه ويكبح جماح غروره.
٨- كما لا يخفى أنها عالجت موضوعا من أخطر القضايا الإنسانية، متمثلة بادعاء فريق من البشر الألوهية ركونا إلى سلطان الملك، فيدع فريقا من الناس يستبد بهم الغرور والتجبر، وفي المقابل تجد فريقا يستبد بهم الخنوع والذل فيرضون بالخضوع والدون، حين تنطمس بصيرتهم أمام مطالب الدنيا التي يتوهمون وجودها بأيدي الملوك، فجاء موقف إبراهيم عليه السلام ليرد الجنس البشري إلى الاعتدال، حين لا تتخذ إلها سوى الله

الخاتمة

أولا: النتائج.

١ –لا تنحصر وجوه الإعجاز القرآني، فمع كل تطور واكتشاف جديد، ومع كل فتح لباب من أبواب العلم

والفكر، يجود القرآن بالمزيد . ذلكم الكتاب الذي لا تنفد جِدّته ولا تنقضي عجائبه.

٢ - لم يغفل العلماء عن فكرة إعجاز القرآن في ميدان الجدل والحوار، وإنما كانت تستوقفهم وتستلفت نظرهم، فيذكروا ذلك بإشارات وعبارات، تشير إلى جوانب متفرقة، أو تعالج مباحث جزئية، فكانت هذه الجهود بحاجة إلى تمحيص ودراسة وتجميع وتنظيم وإضافة. فكان هذا البحث محاولة لأداء هذا الدور، لإخراجه بطريقة تبرز صورة لوجه جديد من وجوه الإعجاز القرآني.

٣ - ظهر من خلال هذه الدراسة أن مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني تتجلى في جوانب متعددة، منها ما يتعلق بطريق إثبات الإعجاز نفسه، ومنها ما يتعلق بموضوعات الحوار من حيث الوفاء بأغراضها، و الكشف عن غوامضها التي يعجز البشر بوسائل بحثهم عن بلوغها، ومنها ما يتعلق بأساليب البيان، وطرق الخطاب من حيث اليسر والوضوح والتنوع المتلائم مع المواقف، أو تقريب البعيد من النفس بصورة محسة متخيلة، ومنها ما يتعلق بالمداخل إلى النفس وطرق التأثير بها ومناغمة فطرتها، ومنها ما يتعلق بضبط التفكير وتوجيهه وتنظيمه بطريقة محكمة تعصم الذهن من الخطأ في الاستدلال.

ثانيا: التوصيات:

١ - يوصي بتلاوة القرآن بتدبر وتأمل، لفهم معانيه ومقاصده، واستخراج الكثير من أسرار إعجازه، ففي نظمه وألفاظه ومعانيه، وتراكيبه، وأساليبه... الكثير من مظاهر إعجازه التي لا تنفد . والذي يعنينا منها هنا التوقف عند مواطن الحوار للتأمل في كيفية عرض الأقوال والرد عليها، وتتبع العوامل المؤثرة في إيجاد الإقناع وتثبيت الحق وإبطال الباطل ومقارعة الخصوم بالحجة القوية الواضحة

٢ - الإفادة من وجوه الإعجاز ومظاهره في الحياة العملية من حيث:

أ- الاستدلال على أن هذا القرآن تنزيل من حكيم خبير، ولا يمكن أن يكون من البشر، وإقامة الحجة على المكذبين.

ب- زيادة الإيمان وتمكينه في قلوب المؤمنين.

ج- الإفادة من أساليب القرآن في يسرها ووضوحها، وقوتها، وإحكامها، ومداخلها في الدعوة إلى الله عموما، وفي الحوار خصوصا، ذلك أن الإلمام بها يقوّي ملكة الحوار، ويطلعه على كيفية معالجة مسائله، واختيار المناسب منها في المواقف المناسبة

٣- قد يفتح هذا البحث أبوابا إلى الدراسات النفسية، من خلال مداخل القرآن إلى النفس البشرية، وإلى دراسات في ميزان الاستدلال العقلي القرآني.

وفي الختام؛ هذا ما تيسر لي الوقوف عليه من مظاهر الإعجاز القرآني في ميدان الحوار والجدل فإن أصبت فبتوفيق من الله، وما توفيقي إلا بالله، فله الحمد والفضل، وإن أخطأت فحسبي أن يكون للمخطيء أجر أسأل الله أن لا يفوتني، ويسرني أن أقف على نصائح العلماء وإسداءاتهم مع وافر الشكر والعرفان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

الهوامش:

---

(١) انظر: الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣، دار المعارف، ص٣٥.

(٢) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ٣٣. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ج١، ص٢٣٩.

(٣) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٣٤.

(٤) انظر: السيوطي، معترك الأقران، ج ١، ص ٤٥٦. فقد أفرد السيوطي وجها للإعجاز هو الوجه الثلاثون، وهو اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة . وذكره في: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م. على أنه وجه من وجوه علوم القرآن، ج٤، ص٦٠. وذكر أن أول من أفرد جدل القرآن بالتصنيف نجم الدين الطوفي، وهو سليمان بن عبد القادر بن عبدالكريم المتوفى سنة ٧١٦ه.

(٥) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب من نسل زيد بن الخطاب اخو عمر بن الخطاب. الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج٢، ص٢٧٣. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف علي طويل، ومريم قاسم طويل، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه/١٩٩٨م، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج ٢، ص ١٨٤. ترجمة رقم ٢٠٧.

(٦) الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم، رسالة في الإعجاز (بيان إعجاز القرآن)، مطبوع ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، د.ت، ص٧٠.

(٧) الإمام أحمد ابن حنبل، المسند، دار صادر، ج ١، ص١٧. مع منتخب كنز العمال بحاشيته، ج ٤، ص٣٧١. البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني، دار الشهاب، القاهرة، ج٢٠، ص٢٣٠.

(٨) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند من أمور رسول الله وسننه وأيامه، متن فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيت الأفكار الدولية، توزيع المؤتمن للتوزيع، حديث رقم ٤٩٨١، المجلد الثاني، ص٢١٩٢.

(٩) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢ه) حافظ الإسلام في عصره . الأعلام، ج ١، ص١٧٨.

(١٠) العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، طبعة بيت الأفكار الدولية، ج٢، ص٢١٩٣.

(١١) الجلال السيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٨٤٩-٩١١ه) إمام حافظ مؤرخ أديب. الأعلام، ج٣، ص٣٠١.

(١٢) وذلك لغلبة النزعة المادية عليهم.

(١٣) الأصح أن نقول لحسن استعدادهم وسلامة فطرتهم وذلك لأنه قد يوجد بين الكفار ذوي مقدرة عقلية وذكاء مفرط لا ينكر، ولكنها مطموسة بالنزعة المادية لتلوث الفطرة وسوء المنبت والتعصب ، ووصف السيوطي رحمه الله معجزات هذه الأمة العقلية بالكثرة مع أنها معجزة واحدة هي القرآن الكريم باعتبار كثرة مفرداتها وتعدد وجوهها فقد ذكر في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن خمسة وثلاثين وجها.

(١٤) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص٣.

(١٥) أصل الحوار من حور وهو الرجوع عن الشيء والى الشيء والمحار: المرجع. وكلمته فما رجع إلي حواراً وحواراً ومحاورة وحويراً ومَحُوره، بضم الحاء، بوزن مشورة أي جواباً. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، ج٤، ص ٢١٧-٢١٨. وأحار عليه جاوبه أي: رده والمحاورة والمجاوبة والتحاور: التجاوب، وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام. والحوار: المرادّة في الكلام، ومنه التحاور قال تعالى :[وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا][المجادلة: ١] الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداوود، ط ٢، ١٤١٨ه/١٩٩٧م، دار القلم، دمشق، ص٢٦٢.

(١٦) الجدل: شدة الفتل، وجدله احكم فتله. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ص١٢٦. وأصله من جدلت الحبل إذا شددت فتله فتلاً محكما. لسان العرب، ج١١، ص١٠٣. هذا المعنى الحسي ومنه استعير المعنى المعنوي وهو : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة فكأن كلا من

المتجادلين يفتل الآخر عن رأيه المفردات ، ص١٨٩. المعجم الوسيط ج١، ص١١٦.

(١٧) انظر: عباس، فضل حسن ، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص٣١.

(١٨) انظر: خلاف، عبد الوهاب ، علم أصول الفقه ، دار القلم، ط٨، دون تاريخ، ص٢٥-٢٧. الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٢٠.

(١٩) هذه القضايا يعجز الإنسان عن معرفتها بنفسه، وتعجز وسائل بحثه الذاتية عن الوصول إلى علم شاف عنها، وطريق معرفتها وحي السماء، فهي ألغاز محيرة للعقل البشري، لم يعرفها إلا من الأنبياء عليهم السلام، وقد استوفى القرآن العظيم الحديث عنها بأساليب متنوعة منها الحوار، فأصبحت بعد البيان القرآني بفضل الله وبرحمته واضحة بينة لا غموض فيها.

(٢٠) أل التعريف في (الحمد) أفادت الاستغراق، ولام التمليك في (لله) إضافة إلى تعريف ركني الجملة الاسمية أفادت التخصيص. انظر: الكيلاني، إبراهيم عبد الحليم مصطفى زيد، تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣٠. وانظر أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - المشتهر بتفسير أبو السعود - دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ٣، ص١٠٤.

(٢١) الكيلاني، إبراهيم زيد ، تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام، ص٣١. وانظر: الجهني، مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، إصدار الندوة العال مية للشباب الإسلامي ، الصابئة، ج٢، ص٧٢٤. المجوسية، ج٢، ص١١٤٩.

(٢٢) نفس المصدر.

(٢٣) انظر: الشربيني، الخطيب، السراج المنير، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية الخطيب، ج١، ص ٤٠٩. الجمل، سليمان بن عمر العجيلي، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، وبهامشه ثلاث كتب، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، دون تاريخ، ج، ص٢.

(٢٤) انظر: دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، دون تاريخ، ص٥٩-٦٠.

(٢٥) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآ ن، ط ٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار الفكر، دمشق، ص٤٥-٦٣.

(٢٦) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ج ٢، ص ١٨١. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ط٣، دار الكتب المصرية، دار الكاتب العربي، بيروت، ج٧، ص٩٠.

(٢٧) انظر: الألمعي، زاهر عواض، مناهج الجدل في القرآن الكريم مطابع الفرزدق، ص٢٩٨وما بعدها.

(٢٨) انظر: نفس المصدر، ص١٢٥وما بعدها

(٢٩) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٣٥١.

(٣٠) محمد عبدالله دراز فقيه متأدب معاصر، مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء في الأزهر . الأعلام، ج٦، ص٢٤٦.

(٣١) دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، ص١١٣.

(٣٢) أي بعيدا عن المقاييس والمصطلحات والرموز التي لا يعرفها إلا المختصون بعلم المنطق.

(٣٣) السيوطي: معترك الأقران، ج١، ص٤٥٦.

(٣٤) المصدر السابق نفسه.

(٣٥) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير (٧٧٥-٨٤٠هـ) زيدي مجتهد باحث من أعلام اليمن . الأعلام، ج ٥، ص٢٠٠

(٣٦) الظاهر انه يعني قوله تعالى : [لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] [الأنبياء: ٢٢].

(٣٧) ابن الوزير: أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، كتب هوامشه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٢٢.

(٣٨) ابن رشد الحفيد، محمد بن أحمد بن محمد الفلسوف المعروف (٥٢٠-٥٩٥هـ) الأعلام، ج٥، ص٣١٨.

(٣٩) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحقيقة والشريعة من الاتصال، ص٣١.

(٤٠) نفس المصدر.

(٤١) الألوسي، محمود شكري، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ج١٤، ص٢٥٤.

(٤٢) الأصفهاني، المفردات، ص٨٩-٩٠.

(٤٣) أبو زهرة ، محمد، المعجزة الكبرى ، دار الفكر، ص٣٩٢.

(٤٤) دراز، النبأ العظيم، ص١١٣.

(٤٥) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص ٣٦، ٣٧ بتصرف.

(٤٦) انظر: دراز، ص١١٤.

(٤٧) نفس المصدر.

(٤٨) دراز، النبأ العظيم، ص١١٦.

(٤٩) سيد قطب إبراهيم كاتب ومفسر وأديب معاصر . الأعلام، ج٣، ص١٤٧.

(٥٠) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ص٢٨.

(٥١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، الطبعة السابعة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ج٣، ص١٧٤.

(٥٢) الحارث بن أسد المحاسبي، أحد علماء القرن الثالث الهجري من أكابر الصوفية كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظا مبكيا، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. (ت ٢٤٣هـ). الزركلي، الأعلام، ج٢، ص ١٥٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص٤٥.

(٥٣) الزين، سميح عاطف، الإسلام وثقافة الإنسان، الطبعة الخامسة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، ص٩.

(٥٤) القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، ج ٧، ص١٣٨. ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، ص ٢٧ رقم الحديث (٤٢٣٣). الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، جامع الترمذي، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ρ، بيت الأفكار الدولية، كتاب الزهد، باب ما جاء في قلب الشيخ، رقم (٢٣٣٩)، ص٣٨٥. كتاب صفة القيامة، باب ٢٢، رقم ٢٤٥٥، وعند البخاري بلفظ: يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان...، كتاب الرقائق، باب من بلغ سين سنة فقد اعذر الله إليه، ج ٣، رقم الحديث (٦٤٢١) فتح الباري، وانظر: العجلوني، كشف الخفاء، ج٢، ص٣٩٦ حديث رقم(٣٢٥٤).

(٥٥) الزين، سميح عاطف، الإسلام، ص٣١.

(٥٦) العقاد، عباس محمود، الفلسفة القرآنية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ص١١ بتصرف.

(٥٧) التسبيح: أصله من السبح وهو المر السريع في الماء، واستعمل لسرعة الذهاب في العمل. والتسبيح: تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل عاما في العبادات قولا كان أو فعلا أو نية . الأصفهاني، المفردات، ص٣٩٢.

(٥٨) انظر: السيوطي، معترك الأقران، ج ١، ص ٤٥٦. بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة – القاهرة، ص٣٧٤.

(٥٩) انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد، القسطاس المستقيم، من مجموعة رسائل الإمام الغزالي، بإشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٩١.

(٦٠) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص٦٠-٦١. معترك الأقران، ج١، ص٤٥٧.

(٦١) السيوطي، معترك الأقران، ج ١، ص ٤٦١. الإتقان، ج٤، ص٦٤.

(٦٢) نفس المصدر.

(٦٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٤، ص٩٤.

(٦٤) نفس المصدر.

(٦٥) بدوي، أحمد، من بلاغة القرآن، ص ٣٧٥. وانظر السيوطي، معترك الأقران، ج١، ص٣٧٥. الإتقان، ج٤، ص٦٦.

(٦٦) تفسير أبو السعود، ج٣، ص١٥٣.

(٦٧) بدوي، من بلاغة القرآن، ص ٣٧٦. الإتقان، ج ٤، ص٦٥.

(٦٨) بدوي، ص٣٧٦.

(٦٩) تغضب.

(٧٠) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب ابن مالك، رقم الحديث (٤٤١٨). فتح الباري، ج ٢، ص١٩١٤. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ج١٧، ص٨٧.

(٧١) انظر: ابن كثير، التفسير، ج٣، ص٣٥٧.

(٧٢) ابن كثير التفسير، ج١، ص٣١٣.

(٧٣) أي ندفع الجزية.

(٧٤) البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، حديث رقم (٤٣٨٠). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب، فضائل أبي عبيدة، ج ١٥، ص١٩٢. ابن ماجه، السنن، المقدمة، باب ١١، فضائل أصحاب رسول الله ε، فضل أبي عبيدة، حديث رقم (١٣٥، ١٣٦) ص٤٨-٤٩.

(٧٥) ابن هشام، محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق : مصطفى السقا وجماعة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الخير، بيروت ودمشق، ج ٢، ص ١٧٠. وانظر: ابن كثير، التفسير، ج١، ص٣٦٨-٣٦٩.

(٧٦) انظر: مصطفى، معتصم بابكر، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، سلسلة كتاب الأمة، العدد (٩٥) السنة الثالثة والعشرون، جمادى الأولى ١٤٢٤هـ، ص٦٧.

(٧٧) انظر: جعفر، محمد كمال إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية دراسة نصوص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، مكتبة الفلاح، الكويت، ص٣٤.

(٧٨) انظر: مصطفى، من أساليب الإقناع، ص٦٧.

(٧٩) انظر قصة عمر ψ في مقدمة هذا البحث.

(٨٠) في ظلال القرآن، ج٨، ص٤٨٤.

(٨١) الجمل، الفتوحات الإلهية، ج٤، ص٣٨٨.

(٨٢) المعنى أن يتشبث الكفار بأن حالهم في الآخرة كحال المؤمنين لأنهم مستحقون للنعيم، كما أنهم ينعمون في الدنيا، ولأن الله وعدهم به، أو لأنهم مقلدون للعقلاء فيما قالوا . الكازروني، أبو الفضل القرشي الصديقي الخطيب، حاشيته على تفسير البيضاوي، مؤسسة شعبان، بيروت، ج٥، ص١٤٦.

(٨٣) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، وبهامشه حاشية الكازروني، مؤسسة شعبان، بيروت، ج ٥، ص ١٤٦. الجمل، الفتوحات الإلهية، ج٤، ص٣٨٩.

(٨٤) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو، اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ) العالم المعروف إمام أهل الحديث في وقته من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة الأعلام، ج٥، ص٩٩. وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٢٤، ترجمة رقم ٥١.

(٨٥) اليحصبي، القاضي عياض، متن شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ε، نور الدين القاري الهروي، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ج٢، ص٧٤٨. وانظر: ابن الوزير، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، ص٢٠.

(٨٦) انظر: الغزالي، القسطاس المستقيم، ص ١٨٢. ابن تيمية، أحمد، الرد على المنطقيين، تقديم وضبط : رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، ج٢، ص١١٣. والغزالي هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام (٤٥٠-٥٠٥) فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف . الأعلام، ج ٧، ص ٢٢. وفيات الأعيان، ج٣، ص١٤١، ترجمة رقم ٥٨٨. وابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم الملقب بشيخ الإسلام وشهرته واسعة. الأعلام، ج ١، ص ١٤٤. البداية والنهاية، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م، مكتبة دار المعارف، بيروت، ج١٤، ص١٣٥.

(٨٧) الحد الأوسط هو المعنى المشترك بين قضيتي القياس وسمي كذلك لأنه الوسيط الجامع بينهما، كأن تقول : الشمس كتلة من نار . وكل نار محرقة . فالحد المتكرر بين هاتين القضيتين هو النار . وعليه تبنى النتيجة المستخلصة من القضيتين، فتقول: الشمس محرقة. انظر: الميداني، ضوابط المعرفة، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٨٨) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ج٢، ص١١٣. والعلة هي: ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه. الجرجاني، التعريفات، ص٦٦.

(٨٩) دل القرآن على وجود هذا الميزان من خلال الآيات السابقة وفسر الميزان بالعدل ماديا ومعنويا أي شرع العدل لإعطاء كل مستحق حقه. انظر: الطبري، جامع البيان، ج ١١، ص ٥٧٦، ٦٨٨. الرازي، التفسير الكبير، ج٢٩، ص٩١. كما أرشد إلى كيفية استعماله في المعقولات بآيات دلت على ضوابط تمييز الحق من الباطل، كقوله تعالى: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا][الأنبياء: ٢٢] حيث جعل المقابلة بين أمرين تتولد عنهما نتيجة، فقرن بين التعدد في الآلهة والفساد، وبما أن الفساد ممتنع بدلالة الواقع، دل ذلك على وحدانية الله لا محاله . وكما كشف عن الصدق من الكذب في قوله تعالى: [مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ] [الأنعام: ٩١] وذلك حين أنكر يهود نبوة محمد ε قائلين ما أنزل الله على بشر من شيء أقام الحجة عليهم من خلال ميزان منضبط بالمقابلة بين أمرين الأول: موسى عليه السلام بشر. الثاني: موسى أنزل عليه الكتاب باعترافكم . النتيجة بطلان دعواهم أنه ما أنزل الله على بشر من شيء. انظر: الغزالي: القسطاس المستقيم، ص ١٩٠-١٩١.

(٩٠) انظر: النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، ص١٤٩-١٥٢.

(٩١) انظر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص٦٧ وما بعدها.

(٩٢) ابن تيمية، الرد على المنطقيين، ج١، ص١٢٩.

(٩٣) انظر نفس المصدر.

(٩٤) للتفريق بين (بسورة من مثله) وبين (بسورة مثله) راجع: عباس، إعجاز القرآن، ص٣١.

(٩٥) عرّفه العلماء بتعريفات عدة متقاربات الألفاظ والمقاصد: فقال الجاحظ: هو قلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، البيان والتبيين، تحقيق وشرح : حسن السندوبي، الطبعة الرابعة، ١٣٧٥ه/١٩٥٦م، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج ٢، ص ١٧. وعرفه الرازي بأنه : العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق : أحمد حجازي، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه/١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت، المكتب الثقافي، القاهرة، ص٢٤٦.

(٩٦) انظر: مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣/١٩٨٣م، ج ١، ص ٣٤٤. الجاحظ، البيان، ج١، ص١٢٠.

(٩٧) للكشف عن تميز القرآن في الإيجاز عقد الرازي مقارنة بين قوله تعالى : [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ] [البقرة: ١٧٩] وبين المثل الذي كان يضربه الناس بقولهم: (القتل أنفى للقتل) وذكر سبعة من وجوه التميز على قلة هذه الكلمات. انظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٩٨) دراز، النبأ العظيم، ص١٠٩.

(٩٩) انظر: دراز، ص١٠٩.

(١٠٠) انظر: دراز، ص١١١-١١٢ بتصرف.

(١٠١) انظر: الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.

(١٠٢) انظر: الزمخشري، ج١، ص٣٨٧.

(١٠٣) الغزالي، القسطاس المستقيم، ص١٨٥ بتصرف.